

نظريات نشأة اللغة الإنسانية المحاكاة التواضع والاصطلاح/ الالهام

منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض وهو يحاول أن يجيب عن التساؤل الآتي: كيف نشأت اللغة البشرية؟ كيف توصل الإنسان إلى هذا النظام؟ هل الإنسان هو من توصل إلى هذا النظام؟ أم أوحى بهذا النظام إليه؟ وقد اهتم علماء اللغة إلى جانب الفلاسفة بقضية نشأة اللغة البشرية، فتعددت الآراء واختلفت النظريات حول هذا الموضوع.

فسّرت الدراسات اللغوية العربية القديمة أصل اللغة انطلاقاً من مذهبين؛ حيث يرى المذهب الأول أن اللغة **توفيقاً**، وتمّ صنعها على يد الله تعالى، كانوا يعتقدون أن اللغة بوصفها تكويناً مذهباً لا يمكن أن يكون من صنع الإنسان، في حين يذهب المذهب الثاني إلى أن اللغة جاءت **اصطلاحاً** وتمّ صنعها على يد مجموعة من اللغويين والحكماء، وذكر السيوطي أن الإمام الحرمين قال: "اختلف أرباب الأصول في مأخذ اللغات، فذهب ذاهبون إلى أنها توقيف من الله تعالى، وصار صائرون إلى أنها تثبت اصطلاحاً وتواطؤاً" (المزهر، 1، 21، نقلاً عن: كمال شاهين، نظرية النحو العربي القديم، ص44)، وهناك من القدماء من أخذ بالرأيين أمثال "ابن جني". وثمة نظرية أخرى تذهب إلى أن أصل اللغة محاكاة للطبيعة؛ فالكلمات جاءت نتيجة لأصوات طبيعية (الإنسان والحيوان والأشياء).

وقد ظهرت نظريات وافتراضات أخرى عند المحدثين حول نشأة اللغة البشرية منها: نظرية (Bow) (Yo-he ho)، (Ding-Dong)، (Pooh-Pooh)، wow.

1. النظرية التوقيفية: يقول ابن فارس: "إن لغة العرب توقيف ودليل ذلك قول جل ثناؤه (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة، 31)

فكان ابن عباس يقول "علّمه الأسماء كلها وهي هذه [الأسماء] التي يعرفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها" (السيوطي والمزهر، نقلاً عن: سعيد بحيري، المدخل إلى مصادر اللغة العربية ص 246).

يرى الباحثون أن التصورات الخاصة بنشأة اللغة العربية ترتبط بالفكر الثقافي العربي القديم، لذا تقوم نظرية التوقيف على أن نشأة اللغة حدثت بتلقين إلهي لأدام عليه السلام، وقد خصص ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" باباً حول "القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟"، ويؤكد ابن فارس على أن اللغة توقيفية من الله عزّ وجلّ قائلاً: "والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجّاهم بأشعارهم، لو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى منافي الاحتجاج بنا أو اصطلاحنا على لغة اليوم لا فرق..." (علي عبد الواحد وافي نقلاً عن: محمد أسعد النادري، فقه اللغة مناهله ومسائله، ص 25).

كما يعتمد الغربيون في تفسير توقيفية اللغة، على نص ورد في سفر التكوين الذي يقول: "وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حيّة فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية" (سفر التكوين، الأصحاح الثاني 19-20، نقلاً عن: نفسه، ص 27)

2. نظرية المواضعة والاصطلاح: ترى هذه النظرية أن اللغة من صنع الإنسان من خلال التواضع والاتفاق والاصطلاح على ألفاظ اللغة ومعانيها، وكانت فكرة الاصطلاح موجودة منذ العصور القديمة؛ عند فلاسفة اليونان مثلاً (القرن الخامس قبل الميلاد).

يذهب ابن جني تارة للقول أن اللغة إنما نشأتها تواضع واصطلاح، وإنّها وحي وتوقيف تارة أخرى، وقد وضع باباً في "الخصائص" سمّاه بـ (القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح) متردداً في أصل اللغة أهي توقيف أم اصطلاح، ولكن

نظريات نشأة اللغة الإنسانية المحاكاة التواضع والاصطلاح/ الالهام

حسب الباحثين، أخذ ابن جني بالرأيين ولم يستطع ترجيح أحد الرأيين على الآخر. فمعظم علماء اللغة الذين نادوا بالاصطلاح والمواضعة في نشأة اللغة هم معترلة ومن بينهم ابن جني، حيث "استمدوا أدلتهم من المنطق العقلي، وفسروا ما ورد من نصوص بحيث تلائم اتجاههم، وتنسجم مع منطقهم" (إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 14).

وتتمثل حجج القائلين بالاصطلاح فيما يأتي:

الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها، عرقية لا تخضع لمنطق أو عقل، (لماذا لم يطلق مثلاً على الشجرة اسم آخر) لا توجد علاقة منطقية بين الاسم والمسمى (الدال والمدلول) ؛ فكل اللغات "تتضمن تلك الألفاظ التي يعبر كل منها عن أكثر من معنى وهي ما يسمى بالمشتراك اللفظي، والألفاظ التي يشترك اثنان منها أو أكثر في معنى واحد وفي الترادفات، يتبين بعد كل هذا أنّ اللغة لا يعقل أن تتفق مع إحكام ما يخلق الله من أشياء" (إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 15).

يلخص ابن جني نشأة اللغة بالمواضعة والاصطلاح على النحو الآتي: "كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة فيضعوا لكل واحد سمة ولفظاً إذا ذكر عرف... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدام فأومأوا إليه وقالوا إنسان، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أنّ المراد به هذا الضرب من المخلوقات" (نفسه، ص 16).

استمر وتواصل الخلاف بعد عصر ابن جني وابن فارس بين علماء اللغة وأهل الكلام حول نشأة اللغة وأصلها، لينتهي بهم الأمر إلى القول أن اللغة بدأت توقيفية وانتهت إلى الاصطلاح والتواضع.

3. نظرية المحاكاة (محاكاة الأصوات الطبيعية): يرى أصحاب هذه النظرية أنّ الإنسان اتخذ من كل الأصوات الطبيعية أسماء لكل الظواهر الطبيعية من خلال الأصوات التي تصدرها، حيث يقول ابن جني في هذا الصدد: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدوي الرياح وحنين الرعد وخزير الماء وشحیح الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الطيبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب مقبل" (نفسه، ص 16).

يرى أصحاب هذه النظرية أن الكلمات تتطور ويتغير مفهومها ولا يرتبط بدلالة المصدر الأصلي للكلمة، ويوضح ذلك إبراهيم أنيس قائلاً: "يجب ألا ندهش حين نرى معاجمنا العربية تتضمن في مادة "نباح الكلب" معنى جديداً بعيداً عن الكلب وصوته، مثل قول صاحب القاموس [النّباح، مناقف صغار بيض مكية تجعل في القلائد]. وتقول من الفحيح بمعنى صوت الأفعى (فحّح= صحح المودة وأخلصها) وفي مادة الثغاء أي صوت الغنم يقول: ((أتيت فما أتني= ما أعطى شيئاً))" (نفسه ص 17)، بينما في بعض الأحيان يحدث العكس؛ أي يكون لمعنى الكلمة الجديد صلة بالمعنى الذي يحمله المصدر الأصلي للكلمة كأن "يشق من زئير الأسد كلمة " الزأرة" بمعنى الأجمة . وكأن يقال في مادة رغاء الإبل أي صوتها، ((الترغية معناها الإغضاب))" (نفسه الصفحة نفسها).

لخص ابن جني باباً في (الخصائص) عنوانه بـ ((الألفاظ أشباه المعاني)) حيث قال: "اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول، والاعتراف بصحته قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنّها تأتي للاضطراب والحركة نحو: النقران، والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه، ومنهاج ما مثلاه، وذلك أنّك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرار نحو الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقة، والصعصة والجرجرة، والقرقرة..." (محمد أسعد النادري، فقه اللغة مناهله ومسائله، ص 29-30).

نظريات نشأة اللغة الإنسانية المحاكاة التواضع والاصطلاح/ الالهام

لقد وجه اعتراض لنظرية محاكاة الأصوات انطلاقاً من كون اللغات في الوقت الراهن تشمل على قدر ضئيل من هذه الكلمات التي لها صلة بأصوات الطبيعة، فلا يوجد علاقة منطقية تربط بين الاسم والمسموع (الدال والمدلول بالمفهوم الحديث).

لقد ظهر في العصر الحديث (القرن التاسع عشر) نظريات وافتراضات في شأن أصل اللغة، من بينها:

4. Bow wow: يرى أهل هذه النظرية أن نشأة اللغة ترتبط أساساً بتقليد الإنسان للأصوات الطبيعية، حيث بدأ الإنسان "سيرته اللغوية بمحاكاة أصواته الطبيعية المعبرة عن الانفعالات، كالرعب والحزن والفرح، ومحاكاة أصوات الحيوانات، ومظاهر الطبيعة كدوي الرياح، وحنين الرعد، وخرير المياه، وخفيف أوراق الشجر" (نفسه، ص 29، أنظر أيضاً: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 16).

5. Pooh-Pooh: يرى أهل هذه النظرية أن بداية اللغة البشرية كانت مع الأصوات التي يصدرها الإنسان على شكل تأوهات وشهقات للتعبير عن شعوره وانفعالاته؛ الحزن أو الفرح أو الألم...، وينطلقون أصحاب هذه النظرية من فكرة "داروين" حول تطور الكائنات الحية، حيث الأصوات التي يصدرها الإنسان ترتبط بتقلص أو انبساط أعضاء النطق، فـ "الشعور بالازدراء أو الغضب يصحبه عادة الميل إلى النفخ بالفم أو الأنف، ومن هنا ينشأ صوت مثل Pooh في الإنجليزية أو "أف" بالعربية" (إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 18)، ويبقى أن هذه التأوهات التي يصدرها الإنسان باستخدام أعضاء النطق، تختلف من لغة إلى أخرى، ومن شعب وأمة إلى أخرى، فصوت الدهشة عند العرب مثلاً (ah)، بينما عند الانجليز (oh).

6. Ding-Dong: ثمة، حسب أهل هذه النظرية، صلة بين ما يفكر به الإنسان وما ينطقه من أصوات، وتختلف الأصوات حسب نوع الأشياء التي يحدث فيه الاصطدام؛ إذ إن "اصطدام أي جسم أو الدق عليه يولد صوتاً معيناً، به يتميز هذا الجسم في غالب الأحيان. فالدق على حديد صوت يخالف ما يصدر عن النحاس أو الفضة أو الخشب. وهكذا نرى أن لكل شيء رنين خاصاً فيتعدد الرنين بتعدد الآثار الخارجية. لذا تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات المشتمة عليها". (نفسه، ص 18).

7. Yo-he-ho: تتمحور هذه النظرية حول النطق الجماعي للإنسان؛ الصوت الصادر عن جماعة من الناس أثناء عمل شاق تعاونوا عليه، حيث إن الأصوات التي تصدرها هذه الجماعة تساعد على التنفس والشعور بالتشجيع والراحة، ويمكن أن تكون هذه الأصوات عبارة عن الغناء مثلاً، و"يرى أصحاب هذه النظرية أن تلك الأصوات التي تصدر عن جماعة من الناس في أثناء عملهم المضني لا تلبث أن ترتبط بالعمل نفسه، وتصبح بمثابة علم له، ينطقون بها كلما تكرر هذا العمل في الظروف المختلفة. ومثل هذه العبارات الجماعية هي التي بدأ بها الكلام، وهي التي تعد النواة الأولى في النشأة اللغوية". (نفسه، ص 19).

خلاصة

يرى المحدثون أن اللغة ظاهرة اجتماعية وتحيا وتتطور مع الإنسان والمجتمع الذي تستعمل فيه اللغة مع كل ما يطرأ عليها من التغيير عبر الزمن، فهي "كائن حي"، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي بذلك تتغير وتتطور بفعل الزمن، كما يتطور الكائن الحي ويتغير وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته وتطوره ونموه، وهي ظاهرة اجتماعية، تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانه منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراد، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه". (كمال شاهين، نظرية النحو العربي القديم، ص 100)، وعليه ترتبط نشأة اللغة بنشأة المجتمع الإنساني.